الصناعــة اللغويـة

لطالـب العلـوم الشرعـية

فضيلة الشيخ

د. عبد المحسن العسكر

حفظه الله تعالى

عناية وإشراف

أبي عبد الله محمد بن عبده القشبي

وفقه الله

الصناعة اللغوية
لطالب العلوم الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله، وعلى آله وصَحبه أجمعين، أمَّا بعد؛

فإننا نحيِّيكم في هذا اليوم: السبت، ٢٤ من شهر جُمادَى الآخرة لعام (١٤٢٩)، في جامع (الأميرة نورة بنت عبد الله) في الرياض، في هذه المحاضرة التي عنوانها (الصناعة اللغوية لطالب العلوم الشرعية)، وهي ضمن الدورة المكثَّفة في حفظ وإسماع المتون العلمية.

وبادئ بدءٍ أُعلِن لكم أنَّ هذه المحاضرة موضوعها مهم، وكان اللائق أن يقوم بها مَن هو أقدر مني علمًا وأمكن، ولكن لـمَّا أُحيل الأمر إليّ استعنت الله جلَّ وعلا، وأنا أبرأ إليه سبحانه من حولي وقوتي إلى حوله وقوته، ضارعًا إليه عز اسمه أن يُلهمني الصواب ويهديني سواء السبيل، كما أسأله سبحانه أن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصةً لوجهه الكريم، إنه سبحانه قريبٌ مجيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

أيها الإخوة، إن الله جلَّ وعلا لحِكمته وكمال لُطفه خَلَق الإنسان وخصَّه بأنواع من النِّعم ومن أجلِّها نعمة اللسان، فَبِه يتحاورون ويُقيمون شؤون حياتهم. قال الله عز وجلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ *خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

وقد جعل الله البشر شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ومن مُقتضَى ذلك اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وأشارت بعض الدراسات الحديثة إلى أنَّ اللغات التي يتكلَّم بها البشر في أصولها تقرُب من ثلاثة آلاف لغة.

وقد وقع اتِّفاق العلماء قاطبة من عرب ومُستعربين على أنَّ أفضل اللغات وأشرفها اللغة العربية، ولا أقول لأنَّها لغة القرآن كما يقول كثيرٌ من الناس ويُصدِّرون كلامهم بهذا، وهو شرفٌ للعربية ذلك، ولكنْ أقول أولًا: لِما لها من الخصائص السابقة، وهذا يجب أن يُذكَر أولًا، ثم يُقَال: لِما خصَّها الله عز وجلَّ ثانيًا من أنه جعلها لغة لكتابه العظيم.

اللغة العربية لغةٌ لها خصائص تجِلُّ عن الوصف وتفُوق العد، ويكفيها شرفًا وخلود ذِكْر أنَّها لغة القرآن الذي نزل على قلب سيد المرسَلين (محمد بن عبد الله) ﷺ، وهو سيد الفُصحاء وإمام البُلغاء، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

قال الله عز وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

قال (ابن فارس) رحمه الله عند هذه الآية: (فلما خصَّ جلَّ ثناؤه اللسان العربي بالبيان عُلِم أنَّ سائر اللغات قاصِرةٌ عنه، أي: عن هذا اللسان العربي وواقعةٌ دونه).

وقال (الإمام الشافعي) -رحمه الله- في (الرسالة): (ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلم يحيط بجميع علمه إنسانٌ غير نبي، ولكن لا يذهب منه شيءٌ على عامَّتها حتى لا يكون موجودًا فيها مَن يعرفه)، يقول يعني: لا يذهب من هذه اللغة شيء لا يُعرف.

وفي مقدمة (العين): أنَّ الألفاظ العربية تُجاوِز اثني عشر مليونًا من الكلمات ومن الألفاظ، والمستعمل من ذلك قليلٌ.

قال (أبو محمد ابن قُتيبة) رحمه الله: (إنَّ الله اختصَّ لغة العرب دون سائر اللغات، وليس في جميع الأُمم أُمَّةٌ أُوتِيت من العارضة والبيان واتِّساع المجال ما أُوتِيته العربُ خِصيصَى من الله عز وجلَّ -بعض الناس يقول: "خِصيصًا"،

الصواب: "خِصيصَى"- لما أرهصه في الرسول وأراده من إقامة الدليل على نبُوَّته بالختام، فجعله سبحانه عَلَمًا كما جعل عَلَم كل نبي من المرسَلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه) انتهى كلامه رحمه الله.

وشيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله بما آتاه الله من سِعة علِم وعظيم اطِّلاع له ثناء واسع على اللغة العربية، وله ذِكر لخصائصها يحفل به كتابه (اقتداء الصراط المستقيم) يقول في هذا الكتاب: (أكمل اللغات لغة العرب) وذكر أشياء أخرى سنأتي عليها إن شاء الله.

وذكر في كتابه أيضًا (الرد على البكري) يقول: (أكمل الألسنة لسان العرب باتِّفاق أهل العلم بذلك) انتهى كلامه رحمه الله.

ولهذه الصلة العظيمة ما بين اللغة العربية والقرآن فقد اعتقد المسلمون على مرِّ العصور أنَّ لغتهم جزء من حقيقة الدين، وذلك لأنها أعني اللغة هي التي حملت إلينا هذا الدين الذي جاء به النبي الخاتم ﷺ، فهذه اللغة العربية تُرجمانٌ لوحي الله، ولغةٌ لكتابه، ومعجزةٌ للنبي ﷺ، ولسانٌ لدعوته.

كانت لغة العرب قد بلغت أوجَها قُبيل نزول القرآن على اتفاق بين أهل العلم، وكأن ذلك إرهاص لنزول القرآن بهذه اللغة العظيمة، ثم جاء النبي الخاتم محمد ﷺ فهذَّب هذه اللغة وأضفى عليها شيئًا عظيمًا من بيانه.

وجاء هذا الدين ونشرَ هذه اللغة في أقطار الأرض وخلَّدها القرآن بخلوده، فالقرآن كما هو معلوم لا يُسمَّى قرآنًا إلَّا بهذه اللغة، فإذا تُرجِمت معانيه لا يُسمَّى قرآنًا وإنَّما يُسمَّى ترجمةً للمعاني، وكذلك الصلاة لا تكون صلاةً إلَّا بهذه اللغة.

علماء الإسلام رحمهم الله كانوا ينظرون إلى هذه اللغة على أنَّها من الدين، ولهذا قال شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله قال: (إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، وأنَّ حفظ شعارهم من تمام حفظ الإسلام).

ولهذا حرص الصحابة رضوان الله عليهم إذا دخلوا كل قطر فاتحين أنَّهم كانوا ينشرون هذه اللغة، وانظروا في (العراق) في (فارس) حينما دخلها

الصحابة رضي الله عنهم نشروا لغتهم وذهبت لغات الأعاجم.

اللغة أيها الإخوة، وسيلة إلى معرفة القرآن الكريم وإلى فهم سُنة النبي ﷺ، ومن هنا قال العلماء: (إنَّ فهم هذه اللغة واجب؛ لأنَّها السبيل إلى معرفة نصوص الوحيين، ولهذا تعلمون أنَّ ما كان وسيلة إلى واجب فإنه يكون واجبًا مثله، أي أنه يأخذ حُكمه).

والمشهور عند أهل العلم أنَّ تعلم اللغة فرض كفاية يجب أن يقوم به أحد وإذا تركته الأمة أثمت، تواترت النصوص عن أهل العلم في سلف الأمة وخلفها، تواترت النصوص بضرورة تعلم العربية لما بينها وبين علوم الشريعة من الصلة.

وقد روى (ابن أبي شيبة) في المصنف و(البيهقي) رحمه الله عن (عُمر بن الخطاب) رضي الله عنه أنه كان يقول: (عليكم بالتفقُّه في الدين، والتفهُّم للعربية، وحُسن العبارة؛ لأنَّ حُسن العبارة من كمال اللغة ومن جمال الكلام).

وروى (ابن أبي شيبة) أيضًا وغيره عن (عُمر) رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (أمَّا بعدُ؛ فتفقَّهوا في السُّنة، وتفقَّهوا في العربية، وأعربوا القرآن؛ فإنَّه عربي).

(عُمر) رضي الله عنه ينظر إلى هذا اللسان على أنَّه لسان الوحيين، أنَّه لغة الوحيين، وينظر نظرةً أخرى من جانب آخر إلى دخول الأعاجم في هذا الدين وانتشارهم في ديار العرب، فكان يخشى على هذه اللغة أن تذهب معالمها وأن تنطمس أصولها، فكان يكتب إلى عُمَّاله، وكان يأمر الناس بأن يحرصوا على الفصيح.

(الشافعي) رحمه الله في (الرسالة) ذَكَرَ وجوب الاحتفاء بلسان العرب، وذَكَر كثيرًا من خصائص لغة العرب، وكان (الشافعي) رحمه الله معدودًا في فصحاء الناس، حتى إن في الكلام العربي ما لم يُسمع إلَّا من الشافعي، وقد جعله العلماء رحمهم الله حُجَّة، فما جاء عن الشافعي من لسانه فإنه يُحتَجُّ به، ويُذكَر في المعاجم على أنَّه من الكلام الفصيح.

ذكر (الشافعي) رحمه الله في (الرسالة) أنه يُفترض على كل مسلم أن يتعلَّم من العربية ما يبلغه جُهده، قال: (حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذِّكر فيما افتُرض عليه من التكبير، وما أُمِر به من التسبيح والتشهُّد وغير ذلك) انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

و(الشافعي) يُلحظ أنَّه يؤصِّل لعلم هو علم (أصول الفقه)، وسيأتينا إن شاء الله يستمدُّ أصوله من ثلاث ركائز أحدها (علم اللغة)، وقد ذكر (عبد القاهر الجرجاني) رحمه الله أنَّ الذي يؤصِّل علمًا يُعاني معاناةً كبيرة، فيحتاج إلى أن يستجمع قواه، وأن يستحضر ما آتاه الله من العلم، ولهذا كان من أمتع ما يُقرَأ الكتب التي يُؤصَّل فيها للعلوم.

علماء الأمة سلفًا وخلفًا يرون أنَّ العربية مرتبطة بجميع العلوم الشرعية؛ لأنَّها المفتاح الأول للأصلين العظيمين: الكتاب، والسنة، ولا يمكن أن يصل الدارس إلى أسرار الوحيين وإلى استنباط الأحكام منهما، ولا يمكن أن يتمكَّن من فهم دقائقهما حتى يأخذ بحظٍّ وافر من علوم اللغة، فلا يكفيه القليل كما يُقال.

ونلحَظ أنَّ من المعاصرين من يقول علوم اللغة علوم آلة، وتشمُّ من كلامه التقليل لعلوم العربية، تشمُّ من كلامه التقليل من شأنها، وأنَّ أخذ العربية من النافلة.

نحن نقول إن العربية وعلومها نعم، هي آلة من الآلات، ولكنها الركيزة والأساس للانطلاق في كل علم، وتأمَّلوا علماء الأمة ومجتهديها لا يمكن أن يوجد عالم في هذه الأمة إلَّا وهو متضلع من علوم العربية على اختلاف أنواعها، ولهذا اشترطوا في المجتهد أن يكون متبحِّرًا في علوم العربية.

(الزمخشري) في مطلع كتابه المفصل له كلام جيد، ومُقدِّمات الزمخشري فيها بلاغة وحسن وفيها أيضًا طرائف، يقول: (ما من علمٍ من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمَي تفسيرها وأخبارها إلَّا وافتقاره إلى العربية بيِّنٌ لا يُدفَع، ومكشوفٌ لا يتقنَّع) انتهى كلامه.

قال شارحه شارح (المفصل) (ابن يعيش) قال: (وذلك لأنَّ معاني هذه العلوم لا تُعرف على الحقيقة إلَّا بمعرفة ألفاظها، والوُصلَة إلى معرفة ألفاظها معرفة علم العربية) انتهى كلامه رحمه الله.

وفي أبجد العلوم (لصدِّيق حسن خان) يقول: (ومعرفة العربية ضرورةٌ على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، ونقَلَتُها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بُد من معرفة العلوم المتعلِّقة باللسان لمَن أراد علم الشريعة) انتهى كلامه رحمه الله.

وعقدَ (ابن فارس) في كتابه (الصاحبي) بابًا في حاجة أهل العلم والفُتيَا إلى معرفة اللسان العربي، ذكر فيه أن: العلم بلغة العرب واجب على كل متعلِّق من العلم بالقرآن والسنة والفُتَيَا بسبب، يقول: حتى لا غِنَى بأحد منهم عنه، أي عن هذا العلم، يريد علم العربية.

علماء السنة: مَن يقرأ في كتب السنة يجد أنهم ينصُّون على أنَّ من أسباب الجهل ومن أسباب حدوث البِدَع ووقوع الناس في الضلال الجهل بالعربية، وهذا منصوص في كلامهم.

ذكروا أنَّ الجهل بالعربية وأساليبها مما يُوقِع في الضلال، كيف يكون ذلك؟ قالوا: لأنَّ النصوص الشرعية تُفهَم على غير وجهها الصحيح، وتنشأ حينئذٍ فهومٌ جديدة الحادثة من أقوامٍ جهلة، لا يعرفون أساليب العربية، ولا يعرفون مَهْيَع الفصاحة، فحينئذ ينشأ الضلال وتتولَّد البدع.

وقد روى (أبو عُبيد) في (فضائل القرآن)، و(البخاري) في (التاريخ الكبير) عن (الحسن البصري) رحمه الله حين سُئِلَ عن ضلال بعض الفِرَق قال: (أهلكتهم العجمة)، يعني أنَّهم تصوَّروا على النصوص وأخذوا منها وَفق علمهم القاصر، وتركوا الأخذ بالسبب وهو تعلُّم العربية، فوقعوا مما وقعوا فيه.

وممَّا يذكره مؤرخ النحويين عن (أبي عمرو بن العلاء) رحمه الله أنَّه يقول: (أكثر مَن تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية، ولاحظوا أن العراق كان فيها فِرق، وهذا السبب مهم معرفته في تاريخ تلك الفِرَق).

قال بعض أهل العلم ويُنسب ذلك للشافعي: (ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطو) هذه المقولة تُنسب للشافعي، ولكني وجدت (الذَّهبي) رحمه الله في السير يستنكر حدوثها منه، ومعناها صحيح.

(السيوطي) رحمه الله في (صول المنطق والكلام) أرود هذه المقولة وعزاها لـ(لشافعي)، وأتبعها بقوله: (وجدت السلف قبل الشافعي أشاروا إلى ما أشار إليه من أنَّ سبب الابتداع الجهل بلسان العرب) انتهى كلامه.

ولشيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله كلام بديع فليرجع إليه في الكتاب المشار إليه آنفًا، فإنَّه ذكر بعض ضلال الضُلَّال، ورجعه في كثير منه إلى جهلهم بالعربية وأساليبها.

فهذه الأقوال وغيرها كثير عن أهل العلم تؤكد أنَّ الجهل باللغة وعدم معرفة قواعدها وطُرق استعمالها كل ذلك مضنة الوقوع في الابتداع.

وإليكم هذا الخبر الذي رواه (البيهقي) في جامعه بسنده عن (الأصمعي) رحمه الله، قال: جاء (عمرو بن عُبيد) إلى (أبي عمرو بن العلاء)، عمرو بن عُبيد من أئمة الاعتزال، وأبو عمرو بن العلاء من أئمة أهل السنة، جاء يُناظِره في وجوب عذاب الفاسق، المعتزلة يقولون بإمضاء الوعيد كما هو معلوم.

قال له يا أبا عمرو: ءالله يخلف وعده؟

قال أبو عمرو: لن يخلف الله وعده.

قال عمرو فقد قال: أين؟ هذا يسأل.

فذكر آية وعيد لم يحفظها أبو عمرو، يحتجُّ بها على إمضاء الوعيد

فقال له أبو عمرو بن العلاء: من العُجمة أُتيتَ. ألم تسمع قول الشاعر:

وإنِّي وإنْ وعدتُه أو أوعدتُه لمُنجِزِ إيعادي ومُخلِف موعدي.

فاستدلَّ ذاك بآية من القرآن ولكنه لم يفلح؛ حيثُ كان جهله بالعربية سببًا في خطئه ذاك.

كثُرت الفتوحات الإسلامية واتَّسعت دولة الإسلام، ولا جرمَ حينئذ أنْ اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم، وضعفت المَلَكات، فلم يعُدْ بيد أهل العلم إلَّا أن يُهرَعوا إلى تدوين لغة العرب.

ولاحظوا الجهد الضخم في تدوين لغة أُمَّة كاملة، حيثُ ينزل العلماء إلى البوادي ويرحلون إلى الفيافي ويلاحقون الأعراب يدوِّنون لغتهم من أفواههم. ومن أهل العلم مَن بقي في البادية بضع عشرة سنة يدوِّن كلام الأعراب، كما جاء ذلك عن الإمام الثقة (أبي زيد الأنصاري) رحمه الله، وكما كان يفعل (الأصمعي) وغيرهما.

وأقام (أبو منصور الأزهري) عند القَرامِطَة في (الأحسى) قُرابة سبعٍ وعشرين سنة أسيرًا، واستغلَّ أسْرَه في تدوين كلامهم دونه، وانظر أنتَ لو جلست عند جماعة تحسب كلماتهم، ماذا سيكون أمرك؟

بهذا العمل الجليل حُفظِت اللغة، ولا شك أيها الإخوة، أنَّ حفظ اللغة إن هو إلَّا من حفظ الله لكتابه، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

صار لعلماء اللغة منهج في تدوين اللغة وضبطها وفهرستها وتدوينها ودَرْسها، حتى إنَّ منهج أهل اللغة في ضبط لغتهم كمنهج أهل الحديث، فعندهم الصحيح والحسن والضعيف والشاذ والغريب والمسلسَل، وعندهم السماع والقياس كما عند أهل أصول الفقه.

كما ترى ذلك في (الاقتراح) للسيوطي، وقبله في (لُمَع الأدلة) للأنباري، وإنك لتعجب حين ترى جهدهم العظيم، حينما يقولون: هذه الكلمة رديئة وتلك جيدة، وهذه عالية، وهذه شاذَّة.

يقولون مثلًا (أشغله) لغة رديئة والصحيح (شغله)، يحكمون على كلمة بأن

العرب لم يدخلوا عليها (ال)، كما يقولون في (كل) و(بعض)، قالوا إنَّ العرب لم يدخلوا عليهما (ال)، تعجب كيف أنَّهم يحكمون على كلمتين لفظتين بأن العرب الذين يبلغون الآلاف المؤلَّفة في البوادي أنَّهم لم يقولوا (الكل) ولا (البعض).

هذا يدلك على ماذا؟ يدلك على جَلَد وعلى صبر وعلى سعة علم، وقوة حافظة وصبر، وهذا كما أسلفت كله من حفظ الله لهذه اللغة؛ إذ بها حفظ الدين.

مصنفات اللغة: جعلها العلماء للغة دواوين لحفظ لغة العرب وتدوينها ومعرفة اشتقاقاتها وحقائقها ومجازاتها وكناياتها، استنبطوا من اللغة العربية علم النحو واستنبطوا علم الصرف واستنبطوا علومًا أخرى، استنبطوا من هذه اللغة فقهًا وصاروا يسمُّونه (فقه اللغة)، وتجدون مثلا كتاب (المزهد) في مجلدين (المزهد في علوم اللغة)، وهذا يقولون: إنَّه فقه اللغة.

كانت علوم اللغة المختلفة في العصر الأول عصر التدوين، كانت العلوم اللغوية من نحوٍ وصرفٍ ولغةٍ وبلاغة، وحدة متكاملة وحلقات متصلة تُؤلَّف في كتاب واحد، يجمعها كتاب واحد، وهذه الكتب تتسلسل فيها الموضوعات ويأخذ بعضها برقاب بعض، ودونكم مثلًا أول كتاب صُنِّف في العربية وهو كتاب (سيبويه) المتوفى سنة ١٨٠ أو ١٨٥ على اختلاف في تعيين سبب وفاته.

كتاب (سيبويه) ذكر فيه أصول علم العربية، وذكر (الشاطبي) رحمه الله في الموافقات في الجزء الخامس في صفحة أربع وخمسين: (أنَّ كتاب سيبويه يتكلم في النحو واللغة والصرف وعلوم البلاغة، ويكشف عن وجوه تصرفات العرب في الألفاظ والمعاني) هذا كلام الشاطبي.

حتى إنك تجد في كتاب سيبويه أحاديث في التجويد ومخارج الحروف وعلوم الأصوات، وهذا يدلُّك على عظمة هذا الكتاب، حتى إنَّ شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله قال: لا يوجد في العالم مَن يستطيع أن يؤلِّف مثل كتاب سيبويه، وكلمته هذه موجودة في (مجموع الفتاوى).

هكذا كانت اللغة في مبدأ أمرها مجتمعةً متحدَّةً، ثم فُرِّقت بعد ذلك علوم اللغة في مصنفات مستقلَّة كغيرها من العلوم، فصار كل علم من هاتيك العلوم علمًا قائمًا برأسه، كما يكون هذا طبعيًا في كل علم حتى في العلوم الإسلامية.

وإن ممَّا يدعو -أيها الإخوة- إلى العجب بعض طلبة العلم حينما يقولون: (إن عامة علماء العربية معتزلة جهمية أشاعرة مبتدعة)، هذا الكلام في الحقيقة يُذري بقائله وينادي عليه بالجهل وقِصَر الاطلاع.

وهذا المتكلم نفسه لو فتَّشت في علمه لوجدته كحصو الطائر تعرفون حصو الطائر؟ ولو تكلَّم هذا المتكلم لوجدته يلحن ولا يميِّز بين التمييز والحال، ولا يعرف حرف الجر من أداة الشرط.

وهذا الكلام إنَّما قلته لأنه يتناقله بعض طلبة العلم فيأخذونه عن كبير، هذا المتكلم لو قلت له: (أعرب البسملة)، ما أحسنَ إعرابها، مع أنَّ إعراب البسملة من بدهيات العلوم.

وذكر (ابن عاشور) رحمه الله في كتابه (أليس الصبح بقريب) أنَّ العلماء الأوائل كانوا أول ما يبتدئون تعليم الناشئة الصغار إعراب البسملة، فيدربونهم يقولون لهم (أعرب البسملة.)، فالمتكلم بهذا الكلام الذي ذكرت لكم آنفًا لا يعرف إعراب البسملة، وكلامه حينئذ ينادي عليه بالجهل.

إنَّ عاقبة هذا الكلام الذي يُقال -أيها الإخوة- سيئة، تدرون لماذا؟

- لأنَّها طعنٌ في علماء الأمة واتهام لهم، هذا أولًا.

- وثانيًا: أنَّه يصرف الناشئة عن تعلم العربية، وعن حُب لغة العرب.

وهذا في الحقيقة يذكرنا بالاستعمار الفرنسي لبلاد المغرب العربي، فإن الاستعمار لا أعاده الله عمد إلى المواد مواد اللغة العربية، وجعلها إلى أيدي شيوخ مَرْضَى زَمْنَى يكحُّون ويسعلون، فكان هؤلاء يدرسون للطلاب فورَّثوا الطلاب بُغْض هذه اللغة.

وفي المقابل يأتون بشبابٍ من ذوي الوسامة وربما بفتيات يدرِّسونهم اللغة الفرنسية، فنشأ جيلٌ هذا ما نشأ عليه فكيف يحب لغة العرب ولغة القرآن وهي

لغة قومه وأهله؟

فالذين يقولون إنَّ علماء اللغة معتزلة وجهمية وكذا وكذا هؤلاء في الحقيقة يسيئون إلى أنفسهم ويسيئون إلى الناشئة، فليحذر مَن يتفوَّه بذلك.

نحن نقول: نعم، يوجد طائفة من علماء اللغة من أهل الاعتزال والتجهُّم كما يوجد في أهل العلوم الأخرى، يوجد مَن هو مفسر معتزلي، ومَن هو فقيه أشعري، وهذا موجود، وكذلك يوجد في شُرَّاح الحديث وغير ذلك، ولم يقدح ذلك في هاته العلوم لم يقدح فيها، ولم يُزهِّد الناس في علومهم ولا في مصنفاتهم.

وأنا أسوق لكم الآن أسماء طائفةٍ من اللغويين الكبار ممن يُعدُّون من علماء السلف وممَّن ناصروا العقيدة السلفية من علماء اللغة، حتى تعلموا أنَّ هذه اللغة التي تقرأونها وتدرسونها وتطالعون مصنفاتها أنَّها دُوِّنت بأيدي علماء تفخر بهم هذه الأمة، فمن هؤلاء:

- أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة أربع وخمسين ومئة.
- وحماد بن سلمة المتوفى سنة سبع وستين ومئة.
- والخليل بن أحمد المتوفى سنة خمس وسبعين ومئة.
- ويونس بن حبيب المتوفى سنة سبع وثمانين ومئة.
- والنضر ابن شميل المتوفى سنة ثلاث ومئتين.
- والأصمعي المتوفى سنة ثلاث عشر ومئتين.
- وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة أربع وعشرين ومئتين.
- وابن الأعرابي المتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومئتين.
- وابن قتيبة أبو محمد -الذي يُلقَّب خطيب أهل السنة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- المتوفى سنة ست وسبعين ومئتين.
- وإبراهيم الحربي المتوفى سنة خمس وثمانين ومئتين.
- وثعلب -صاحب الإمام أحمد وصديقه- المتوفى سنة إحدى وتسعين ومئتين.

- وأبو منصور الأزهري المتوفى سنة سبعين وثلاث مئة، صاحب (معجم تهذيب اللغة).

وغيرهم كثيرٌ كثير، هؤلاء العلماء هم من سلف الأمة الأخيار، وهم أصحاب منهج سلفي متقن في تدوين علوم اللغة وفي ضبط أصولها وتحرير قواعدها.

وأنا استعرضت كتاب (سيبويه) فلم أجد فيه مسألة تخالف ما عليه سلف الأمة في معتقدها، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، لكنَّني أقول لكم إن هذا الكتاب العظيم الذي يُعدُّ مرجع أهل النحو قاطبة، حتى قال (المازني): (مَن أراد أن يؤلِّف بعد (سيبويه) فليستحي، هذا الكتاب كتاب عظيم لا يوجد فيه خلل لا في منهجه العلمي ولا في عقيدة صاحبه، ما فيه؛ لأنه أُلِّف في عصر متقدِّم، وحسبكم أنَّه الأصل الأصيل لكتب النحو.

قلت لكم إنَّ هؤلاء العلماء الأفذاذ لهم منهج سلفي مضطرد في ضبط اللغة وتحرير قواعدها واستنباط أصولها، ذَكَرَ هذا المنهج صاحب كتاب (مناهج اللغويين في تقرير العقيدة) فليرجع إليه مَن شاء.

كُتُب الاعتقاد عند أهل السنة: التي دوَّنت اعتقاد أهل السنة، وكتب أهل السنة التي هي رد على المخالفين حافلة بالنقل عن هؤلاء الأئمة الأعلام، يحتجُّون بأقوالهم ويناظرون الخصوم بكلماتهم وتقريراتهم اللغوية.

كما ترون ذلك في كتاب شرح أصول السنة للإمام (اللالكائي) رحمه الله، وكما ترونه في كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية) لغزو المعطلة والجهمية لـ(ابن القيم) رحمه الله، وتجدون أيضًا إيراد كلام هؤلاء الأئمة في كتب المنافحِين عن عقيدة السلف كشيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله، وكـ(عثمان بن سعيد الدارمي) قبله في آخرين في آخرين.

فالحاصل أن علماء اللغة كغيرهم يوجد فيهم مَن حاد عن السبيل، لكن علماءهم الأوائل الكبار كانوا على منهج السلف في اعتقادهم فليحذر مَن يطلق لسانه فيهم.

قلت لكم إنَّ علوم الشريعة قاطبة محتاجة إلى العربية، فاللغة وعلوم اللسان هي القاعدة المتينة والأساس الذي تقوم عليه العلوم الشرعية بلا استثناء من: عقيدة، وتفسير، وحديث، وفقه، وأصول فقه، بل قد نصَّ العلماء على ذلك.

ولا ترى كتابًا في هذه العلوم إلَّا وترى فيه التنويه بالعربية وعلومها، وترى فيه أيضًا النقل عن هؤلاء العلماء أعني علماء اللغة، فهم ينهلون من نعيمهم ويرجعون إلى أقوالهم، ولا يُذكَر مصطلح إلَّا ويُؤصَّل أولًا، حيثُ يُذكَر أصله في اللغة ثم يُنقَل عن علمائها.

وأنا أسرد لكم الآن بعضًا من علوم الشريعة، وأذكر لكم نصوص العلماء فيها حتى تروا كلامهم:

علم الاعتقاد: يُسمَّى علم السنة ويُسمُّونه العقيدة، علم الاعتقاد مرَّ بنا النقل عن (الحسن البصري) رحمه الله وعن (أبي عمرو ابن العلاء) أنَّ الضلال والابتداع كان أصله أو من أصوله الجهل بالعربية وعلومها، فهم يرون الجهل بعلوم العربية سببًا لحدوث الابتداع وترقب طريق السلف.

وفي كتاب (الحيدة) الذي فيه ذكر المناظرة بين (الكناني) وبين الرجل المنحرف بحضرة (المأمون)، بيَّن (عبد العزيز الكناني) رحمه الله أن ضلال الرجل الذي ناظره يعود إلى جهله بالعربية.

ثم ذكر (عبد العزيز) هناك أن المنحرفين من أهل الفرق يجهلون سنن العرب في كلامها، فلا عجب بعد ذلك أن يضلُّوا في معتقداتهم وأن يتنكَّبوا طريق السلف، وأن يئوِّلوا القرآن على غير وجهه.

وذكر (ابن السِّيد البطليوسي) في كتابه (التنبيه على أسباب الاختلاف بين المسلمين) ذكر أنَّ من أسباب ضلال الفِرَق جهلهم بالعربية وعلومها، ذكر أنَّ من أسباب ضلالهم جهلهم بالعربية وعلومها، وهذا يدلُّك على أهمية علوم العربية لـمَن يتعاطى علم العقيدة وتأصيل العقيدة.

سؤال: ذكر (ابن هشام) في (المغني) رحمه الله قال: (لا يدخل في الإسلام

مَن قال (أشهد أن لا إلهٌ إلا الله) لا يدخل في الإسلام، بل لا بُد أن يقول: (أشهد أن لا إلهَ إلا الله).

فمَن يعرف السبب يا إخوان؟ نعم، تنكير؟ لا مو بالتنكير، نعم، أحسنت؛ لأن قوله (لا إلهٌ إلا الله) هذا فيه نفي الوَحدة وليس فيه نفي الجنس، فيه نفي الوحدة يعني كأنه إذا قال (لا إلهٌ إلا الله) نفى الوحدة ولم ينفِ أن هنالك إلهين ولا آلهة.

فإذا قلتَ: (لا رجلٌ في الدار) فنفيتَ رَجُلًا واحدًا لكنك لم تنفِ اثنين ولا ثلاثة، ولم تنفِ نساء، عرفتم؟

فإذن لا يدخل في الإسلام إلَّا إذا قال: (لا إلهَ إلا الله)، وذلك لأن (لا) تُسمَّى النافية للجنس وتُسمَّى لا التبرئة، فبهذا يُعلم خطورة الأمر، وأن طالب العلم عليه أن يدقق في هذا العلم.

طالب علم العقيدة يهمُّه أن يتعلَّم اللغة بفنونها المختلفة، وذلك ليرد على المبتدعة الذين جعلوا المجاز وسيلةً وسبيلًا للفرار من إثبات الحقائق التي صرَّح بها القرآن، المبتدعة جعلوا المجاز سبيلًا إلى نفي الحقائق التي صرَّح بها القرآن.

ولهذا يقولون عند نصوص الصفات مثلًا: إنها مجاز، ومَن كان على علمٍ بالعربية وأساليبها فإنه يعرف كيف يرد على القوم، ولا يحتاج الأمر إلى إنكار المجاز من العربية؛ لأن إنكار المجاز متعذِّر، ولكنه يحتاج إلى أن يبطل أصولهم التي استدلوا بها، كما فعل ذلك وقرَّره أحسن تقرير الإمام (عثمان بن سعيد الدارمي) رحمه الله في كتابه (الرد على بِشر المرِّيسي)، فإن المبتدع الذي ناقشه ورد عليه احتج بالمجاز، فرد عليه (عثمان بن سعيد) وقال: (نحن نعلم مجازات العرب ونعلم أنها لا تنطبق على ما ادّعيتَ من هذه النصوص العظيمة).

فمثلًا إذا قال قائل: إن قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] مجاز، نحن نقول: إنَّ هذا ليس بمجاز، ولا يمكن أن يُحمَل على المجاز من جهة اللغة نفْسِها، فإمَّا يمنع حمله على المجاز:

- التثنية في قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾.
- وإضافة الفعل إلى الفاعل ثانيًا.
- وثالثًا: تعدية الفعل بالباء.

فهذه ثلاثة أمور تُؤخَذ من اللغة إضافة إلى ما يُقال من إجماع السلف على أنَّ نصوص الصفات حقائق لا مجازات، فبهذا يُعلَم أن تعلُّم اللغة مهم لطالب علم العقيدة.

علم التفسير: حاجته إلى علوم العربية بيِّنة، ومَن نظر إلى كتب علوم القرآن وكتب أصول التفسير كـ(البرهان) للزركشي، وكـ(الإتقان) للسيوطي، وكـ(الإكسير) للطوخي، مَن رأى في هذه الكتب وجد أنَّ جمهرة مباحثها من مباحث اللغة على اختلاف علومها.

قال (الزركشي) رحمه الله في كتابه (البرهان): اعلم أنَّه ليس لغير العالِم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيءٍ من كلام الله، ولا يكفي في حقِّه تعلم اليسير منها) انتهى كلامه.

وقال (ابن قتيبة) رحمه الله: (وإنما يعرف فضل القرآن مَن كثُر نظره واتَّسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات)، انتهى كلامه رحمه الله، فهذا يدل على أهمية هذا العلم.

بعض المفسرين قال عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١] قال: إنَّ الإمام جمع أم.

وهذا من الجهل بلسان العرب، ومن الجهل بعلم الصرف؛ لأن الأم لا تُجمَع على إمام، ولهذا قال (الزمخشري) قال: (وهذا من بِدَع التفاسير).

أراد القائل بذلك (جمع إمام) علَّل كلامه الباطل فجاء بتعليل مبني على سوء علم، قال: (يُدعَون بإمامهم، قال: يُدعَون أي يُنسَبون إلى إمهاتهم، وذلك سترًا على أولاد الزنى وحفظًا لحق عيسى عليه السلام، فهذا تعليل يعني مضحك وكلام باطل وهو مبني على الجهل بعلم الصرف، فتبيَّن بذلك أنَّ هذا القول سببه

الجهل بالعربية.

ومما يُقال هنا إن الناس يوم القيامة يُدعَون بآبائهم، كما جاء في الحديث الصحيح -حديث (ابن عُمر)-: «أنَّ كل غادرٍ يُعقَد بغدرته لواء، فيُقال: هذه غدرة فلان بن فلان»، ولهذا بوَّب عليه (البخاري) رحمه الله بقوله: (باب ما يُدعَى الناس بآبائهم).

علم الحديث: ذكر في مفتاح السعادة أنَّ علم الحديث يقوم على معرفة العلوم العربية كلها، فطالب الحديث يتوجَّب عليه معرفة العربية، وذلك لأمرين:

الأول: أنه يؤدِّي اللفظ النبوي كما هو على وجهه ولا يلحن، ولهذا قال (شُعبة) أو غيره: قال: (أخشى إذا لحن الراوي أن يُعدَّ في عداد الكذابين)؛ لأن النبي ﷺ لا يجري اللحن على لسانه، ولم يُعهَد عليه خطأ لا في اللفظ ولا في المعنى.

فإذا قال الراوي مثلًا قال: (اتقوا اللاعنان) أو قال ﷺ (اتقوا اللاعنان) نقول اتقِ الله لم يقل النبي ذلك، وإذا قال مثلًا: (إذا التقى المسلمين بسيفيهما) قلنا: خف ربك ما قال النبي ﷺ ذلك، وإذا قال مثلًا (إن لله ملائكة سياحون) قلنا: يا هذا، اسكت، عرفتم؟

يعني لأن الكلمات التي استمعتم هذه لحنات وأخطاء وعلى لك يتوجَّب على طالب علم الحديث أن يكون ذا بصر بالعربية.

والثاني من أسباب تعلم العربية في هذا العلم: أنَّ الماهر في الصناعة اللغوية هو الذي يتمكَّن من نقد متون الأحاديث عند الارتياب فيها، هنالك متون يُرتاب في نسبتها إلى النبي ﷺ، ومَن كان ذا بصر للعربية وعلم بطرائق اللسان فإنه يستطيع أن يميِّز اللفظ الرديء والكلم المضطرب والعبارت الركيكة.

ولهذا قال (الحافظ العراقي) رحمه الله في ألفيته: (وحقٌّ للنحو على مَن طلب)، وقد عقد الخطيب في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي والسامع) بابًا عنوانه: (الترغيب في تعلم النحو والعربية لأداء الحديث بالعبارة السوية).

وقال (النووي) رحمه الله في (تدريب الراوي): (وعلى طالب الحديث أن يتعلم من النحو واللغة ما يسلَم به من اللحن والتصحيف، ولهذا تجدون في تراجم بعض المحدثين أنه كان ضعيفًا في العربية، ويا له من مغمز).

وكان من أهل الحديث من الأئمة مَن يُعنى بعلم العربية ويختبر مَن يروي عنه، كما جاء ذلك في ترجمة (عبد الله بن إدريس) الإمام الحافظ الذي أخرج له الجماعة، قال (المزي) في (تهذيب الكمال)، قال: (وكان لا يحدِّث رجلًا إلَّا بعد أن يختبره في العربية، فإذا لحن أمسك عن تحديثه وصَرَفه).

علم أصول الفقه: قرر الأصوليون أن علم العربية أحد ثلاث مصادر يستمد منها هذا العلم، ذكر ذلك (الآمدي) في (الإحكام) وغيره، وأجمع الأصوليون على أنَّ من شروط الاجتهاد العلم بالعربية وحذقها، حتى قال (أبو البركات الأنباري) قال: (أجمع السلف والخلف من الأئمة على أن علم العربية شرط في رتبة الاجتهاد، وأنَّ المجتهد لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم العربية)، انتهى كلامه رحمه الله.

وأقول لكم: إنَّ الأصوليين قد عُنوا أيَّما عناية بعلوم العربية والنحو، لأنَّهم يمارسونها تطبيقًا في أشرف الكلام وأعلاه وأجلِّه، ولهذا في كتب الأصول من دقائق مسائل العربية ومن فرائض مباحثها ما لا يكاد يوجد في كتب اللغة والنحو.

كما صرح بذلك (السُّبكي) في مقدمة شرح المنهاج لكتاب (الإبهاج)، وكما ذكر ذلك (الزركشي) في (البحر المحيط)، من هذه المباحث مثلًا أحاديثهم في صيغ الشرط وفي حروف المعاني، وأحاديثهم في الترادف وفي الاشتراك، وفي مبدأ اللغات وفي أبواب الكناية، وخروج الصيغ إلى معانيها المجازية فيها فرائض ودقائق.

ولهذا عُنِي الباحثون من أهل اللغة باستنباط أحاديث الأصوليين، وانتشرت المباحث التي تتحدَّث في علوم العربية عند الأصوليين.

علم القواعد الفقهية: علم جليل الشأن القاعدة الفقهية: هي حُكم كُلِّي ينطبق على جزئياته أو على أكثرها، والحُكم يقوم -أيها الإخوة،- على معرفة المعنى والعلة، ومن هنا قامت العلاقة ما بين علم اللغة وعلم القواعد.

وهنالك مسائل وفروع فقهية تتخرَّج على أصول نحوية، وقد عُنِي بذلك جماعة من أهل العلم، أعني بجمع هذا العلم، ومن أشهرهم بل يكاد يكون أشهرهم (جمال الدين الإسنوي) المتوفى سنة سبع وسبعين وسبعمئة، فإنَّ له كتابين في ذلك مطبوعين، أحدهما: (الكوكب الدُّري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية)، والثاني: (التمهيد في تخريج الفروع على الأصول).

علم الفقه: الفقه: معرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، هذا العلم يقوم على ماذا يا إخوان؟ يقوم على الاستنباط، والاستنباط أكبر أدواته علوم اللغة، فباللغة تُفهَم النصوص ويُعرَف مدلولات الألفاظ وعلاقات الجمل،

ولهذا قال (ابن حزم) رحمه الله قال: (فرضٌ على الفقيه أن يكون عالمًا بلسان العرب؛ ليعلم عن الله عز وجل وعن النبي ﷺ، ويكون عالمًا بالنحو الذي به هو ترتيب العرب لكلامهم، الذي به نزل القرآن وبه يُفهَم معاني الكلام التي يعبر عنها باختلاف الحركات، فمَن جهل اللغة وجهل النحو ومَن لم يعرف ذلك اللسان لم يحل له الفُتيَا فيه، لم يحل له الفُتيَا هو لا يحسن فهم الكلام العربي فكيف ينتزع الحكم؟

ولهذا قال (ابن حزم) رحمه الله أيضًا قال: ومَن لم يعرف العربية فحرامٌ عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرامٌ على المسلمين أن يسألوه.

لقد كان الفقهاء رحمهم الله معظِّمين للنحو والعربية، وجاء في (تفسير القرطبي) في أوائله قال (أبو جعفر الطبري): (سمعتُ الجَرمي -وهو صالح ابن إسحاق الفقيه اللغوي من أهل القرن الثاني آخره ومن أوائل القرن الثالث لأنه توفي سنة خمس وعشرين ومئتين- يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أُفتِي الناس بكتاب (سيبويه).

قال (المبرد محمد بن يزيد) قال: (وذلك أنَّ ابا عُمر الجَرمي كان صاحب حديث يعني من أهل الحديث فلما علم كتاب سيبويه تفقَّه في الحديث؛ إذ كان كتاب سيبويه يُتعلَّم منه النظر في التفسير، ويُتعلَّم منه النظر في السنن المأثورة عن النبي ﷺ، فبها يصل الطالب إلى مراد الله عز وجل في كتابه وهي تفتح له أحكام القرآن فتحًا)، انتهى كلامه منقولًا من كتاب القرطبي.

وذكرت لكم آنفًا كلام شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله في تعظيم كتاب (سيبويه)، وأنه لا يستطيعه أحد من الناس، مع أنَّ سيبويه رحمه الله تُوفِّي وهو في الثلاثين من عمره.

فالحاصل أنَّ معرفة الفقيه لعلوم العربية ولفنون اللغة مهم جدًا، لو قيل لإنسان سؤال: ألم تطلِّق امرأتك؟ متى تطلُق يا جماعة؟ إن قال: نعم، أو قال: بلى؟ ألم تطلق امرأتك؟ متى تطلق يا جماعة؟ الجواب إذا قال: بلى، أي: بلى فهو إثبات للطلاق، لكن لو قال: نعم، لم يطلَّق، وذلك لأن (نعم) إثبات للنفي.

وهذا -يا إخوان- إذا كان المتكلم المجيب إذا كان من أهل العلم فما هو معلوم، أمَّا إذا كان عاميًا يعني فينبغي أن يُراعَى، والحاصل أن معرفة هذا العلم من -أعني علم العربية- للفقية من الأهمية بمكان.

لو قال الإنسان: أعتقت عشرة من العبيد إلَّا سبعة هل كلامه صحيح؟ ما تقولون؟ غير صحيح لماذا؟ إي نعم لأن الاستثناء أكثر من النصف هذا لا يصح ولا يجوز عند الجمهور، والحاصل أنَّ دقائق المسائل كثيرة في هذا العلم.

طيب، المنهجية في طلب العربية:

كيف نطلب هذا العلم؟ العربية عند القدماء تشمل علومًا مختلفة من لغةٍ ونحوٍ وبلاغةٍ وصرف، وكانوا يدرسونها كما سلف وحدة متكاملة، وتقدَّم أنَّ كتاب سيبويه جامع لعلوم شتى من علوم اللغة، فما أشار إلى ذلك الشاطبي.

ومع اتِّساع الفهوم وتقادُم الأيام وتشعُّب التأليف وكثرة الكلام وانتشار المسائل بدأت علوم العربية تستقلُّ عن بعضها ويقوم كل علم بنفسه مستقلًّا،

فاستقل علم الصرف على يد (معاذ بن مسلم الهراء)، وكتب (عبد الله بن المعتز) كتاب (البديع)، قيل إنه أول كتاب في البلاغة.

ثم ظهرت المعاجم معاجم اللغة وكتب معاني القرآن اللغوية، وطالب العلم محتاج إلى أن يكون عنده إلمام بعلوم العربية بالقَدر الذي يسعفه في سيره العلمي وتحصيله الشرعي.

فنقول وبالله تعالى التوفيق: إنَّ علوم العربية عند أهل هذا الفن تشمل اثني عشر علمًا على اختلاف بينهم في تحديدها، وممَّن جمع هذه العلوم الشيخ (حسن العطار) في (شرح الأزهرية)، يقول:

نحو وصرف عروض بعده لغة ... ثم اشتقاق وقرب الشعر إنشاء

كذا المعاني بيان الخط قافية ... تاريخ هذا لعلم العُرب إحصاء

ولبعض أهل اللغة مناقشات لتحديد هذه العلوم، الذي يهمُّ طالب العلم من علوم العربية أربعة:

١- النحو.

٢- والصرف.

٣- واللغة (أي مفردات اللغة).

٤- والبلاغة.

هذه أربعو تهم طالب العلم، فأمَّا النحو فيبدأ طالب العلم بالمتن المبارك الآجرومية فإذا حفظه ويسَّر الله له مَن يشرحه، واستنار بشرحي الشيخين (ابن جاسم) و(ابن عثيمين)، فإن الطالب سيحصل على خير كثير وسيسلم لسانه من اللحن. الآجرومية -يا إخوان- مَن اعتنى بها أَمِنَ من اللحن بإذن الله تعالى، وهذا المتن المبارك ألَّفه صاحبه عند الكعبة كما قيل، ولهذا لم يقرؤه أحد إلا انتفع به.

وفي ترجمة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن جاسم جامع فتاوى محمد بن

إبراهيم رأى في المنام أنه يأكل حلوى لذيذة وتمرًا ثم استيقظ وتذكَّر أنه قرأ على الشيخ (ابن باز) رحمه الله الآجرومية ولم يكملها، وكان رأى في المنام أنَّه انقطع عن أكل الحلوى، فقال أوَّلتها بقرائتي لهذا المتن.

والحاصل أن الآجرومية متن مبارك وأنا أحكي لكم ذلك عن تجربة، فإذا أتقن الطالب الآجرومية فينتقل بعد ذلك إلى ألفية (ابن مالك) فيحفظها، ويبحث عمَّن يشرحها له ويستعين بشرح لهذه الألفية.

والألفية بأحد شروحها هي سقف النحو، مَن أتقن الألفية فإنَّه قد حاز علم النحو وظفر به، بل إنَّ مَن أتقن الألفية -أيها الإخوة- كاملة فإنه سيحصل على علم الصرف، لأنَّ الألفية في آخرها مشتملة على هذا العلم.

علم الصرف: هو الباحث في بنية الكلمة، وحاجة طالب العلم إلى الصرف أقل من حاجته إلى علم النحو، ولهذا يقل تدريس الصرف بين الناس، رأيت طلاب العلم في هذا الوقت معنيين بحفظ (لامية الأفعال) لـ(ابن مالك) رحمه الله في مئة وأربعة عشر بيتًا، وهي في علم الصرف وهي خاصة بتصريف الأفعال، وحفظها جيد نافع إن شاء الله تعالى، وأمَّا الشناقطة فإنهم يجعلون اللامية شقيقة لألفية ابن مالك فيحفظونهما معًا.

ثم مما يحتاجه طالب العلم أيضًا من علوم العربية: علم اللغة: وهو العلم الذي يُبحث فيه عن مفردات الألفاظ الموضوعة من حيثُ دلالتها على معانيها، وإن شئت قلت في تعريف هذا العلم هو: معرفة مفردات اللغة ومعانيها، كُتُب هذا العلم هي المعاجم اللغوية.

وقد كان الناس في القديم يحثُّون أولادهم على حفظ كتاب (الفصيح) لـ(ثعلب)، وهو كتاب جمع فيه طائفة من الألفاظ اللغوية، وجمع فيه أبنية من كلام العرب، وهذا المختصر جليل في قدره صغير في حجمه، حتى ذكروا أنَّ العلماء حسدوا مؤلِّفه عليه، ومنهم مَن نسبه إلى غير ثعلب لأنَّهم تكاثروه عليه، هذا الكتاب له شروح متعددة وطُبِع منها طائفة خمسة شروح تقريبًا.

ومن جملة شروحه (التلويح) للهروي، يقول في مقدمته (أمَّا بعدُ؛ فإنه لما كان جمهور الناس الذين يأدبون أولادهم ومَن يُعنَون بأمرهم، يحفظونهم كتاب (الفصيح) قبل غيره من كتب اللغة لما فيه من الألفاظ السهلة المستعملة... إلى آخر كلامه) فيدلك على أنَّ الناس كانوا يأخذون أولادهم لحفظ هذا الكتاب وهو صغير.

من جملة ما عُمل عليه نَظْمُه، فقد نَظَمَهُ (ابن المُرحَّل) في كتابه الذي سماه (موطئة الفصيح) في قرابة ألف وأربعمئة بيت، وهو نظمٌ جزلٌ سهلٌ سلسٌ، فسبحان الواهب الذي ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

وعندنا طالب في هذا المسجد يحفظه أو شرع في حفظه وقد أتمَّ ثلثه تقريبًا، وهو عازم إن شاء الله على إتمامه، وذكرته لكم ليبيِّن أن العلماء كانوا يحرصون على هذا العلم علم اللغة.

طالب العلم يحرص على أن يجعل إلى جواره في مكتبته أو في مجلسه (القاموس المحيط) ليراجعه، ويعرض عليه الكلمات التي يقرأها في كتب أهل العلم أو التي يسمعها في كلام الناس، فإن طالب العلم إذا أدمن الرجوع إلى القاموس صار عنده مَلَكَة، وصار عنده مخزون لغوي، وصار يميز الفصيح من غيره، وكتاب (القاموس) حافل ماتع.

فإذا ضم طالب العلم إلى مكتبته (لسان العرب) لابن منظور، ومعجم (مقاييس اللغة) لابن فارس فيكون كأنما بعث العرب بين يديه يسمع كلامهم ويأخذ عنهم، ولا يحتاج بعد ذلك إلى كتب اللغة أبدًا.

وقد كان العلماء الأوائل يُعنَون بهذا العلم -أعني علم اللغة- وكانت لهم به عناية تامة، وأسوق لكم كلامًا لـ(ابن حزم) رحمه الله يوصي به طلاب العلم أمثالكم، كما في رسالته (مراتب العلوم) يقول: (والذي يجزئ من علم اللغة كتابان أحدهما:

- (الغريب المصنَّف) لأبي عُبيد، هذا مطبوع في مجلدين لكن على طريقة القدماء، عمل به مصنفه أربعين سنة.

- و(مختصر العين) للزبيدي، وهو مطبوع في مجلدين أو ثلاثة على اختلاف الطبعتين).

قال رحمه الله: (ليقف على المستعمل أي من اللغة بهما ويكون ما عدا المستعمل عنهما عدة لحاجة إن عنَّت يومًا ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب، فإن أوغل في علوم اللغة حتى يُحكِم خلق الإنسان، كتاب (خَلق الإنسان) لثابت في مجلد مطبوع ، و(الفروق) له أيضًا لثابت في مجلد مطبوع، و(المذكر والمؤنث) لابن الأنباري مطبوع في مجلدين، و(الممدود والمقصور) مطبوع في مجلد لأبي علي القالي، و(المهموز) له أيضًا، والنبات أي: كتاب (النبات) لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينواري، وما أشبه ذلك فحَسَنٌ) انتهى كلامه رحمه الله.

كتاب (النبات) هذا، هذا مفقود اطَّلع عليه صاحب معجم الأدباء وذكروا أنه في ثلاثين مجلدًا، جمع فيه مصنفه كل ما في أرض العرب من النباتات، وقد ذكر صاحب الوافي بـ(الوفيات) أن مؤلفه كتبه على طريقة العرب الأوائل، أعني في جزالة اللغة وفي بعورة ألفاظهم، لأنه دون مايوجد في أراضيهم، هذا الكتاب يطالب (ابن حزم) رحمه الله طالب العلم بالرجوع إليه.

هذه الكتب -كما قلت لكم- يعني كانت قديمة قبل أن يوجد ما ذكرته لكم من الكتب التي غطت كـ(القاموس) و(لسان العرب)، معجم (مقاييس اللغة) مهم لطالب العلم أ، ينظر فيه حتى يعرف أصول الكلمات؛ لأنه يذكر الجذر وما يتفرَّع عنه، وأحيانًا يذكر الأصل فيقول مثلًا: الباء والتاء والراء (بتر) أصل واحد يدل على القطع، فتعرف أن المعاني أو الاشتقاقات الأخرى ترجع إلى أصل واحد، وهذا من مزايا لغة العرب أنها مشتقة، فتعرف إذا عرفت الأصل عرفت ما يتفرَّع عنه، وهذا خلاف ما يوجد في اللغات الأعجمية، فإنها لغات يعني ليست لغات اشتقاق، فاللغة الإنجليزية مثلًا فيها مادة مثلًا (كَتَبَ write) ولا لأ؟ طيب، مكتبة

عندهم بالإنجليزية (liprary) هل يوجد بين write و liprary علاقة؟ ما في.

والحاصل أن معجم (المقاييس) يرجع بك إلى أصل الكلمات، فاللائق بطالب العلم أن يكثر من الرجوع إليه، وقد ذكر بعض المعاصرين أن استدراكات (الزبيدي) في (تاج العروس) على القاموس مستقاة من معجم (مقاييس اللغة)، كان يرجع إلى الأصل ثم يستدرك على مؤلفه.

علم البلاغة: يكفي طالب العلم أن يقرأ دروس البلاغة لـ(حفني ناصف) وزملائه، فإذا قرأه على أستاذ في هذا العلم فإنه يأخذ به إلى درجة عُليا فيه، ولا يوجد شرح لدروس البلاغة يعني أوصي به؛ لأن الشروح الموجودة الآن يعني مقتضبة، أو ليست على طريقة أدبية بلاغية.

هذا ما يتعلَّق بهذه العلوم الأربعة: النحو، التصريف، أو الصرف، اللغة، البلاغة، وبعد، فالذي أوصي به طالب العلم أن يُعنى بلغته ويرتقي بها، وعليه أن يحرص على أن يستعمل الفصيح ويتجنَّب اللحن في كلامه إذا درَّس أو حاضر أو قرأ كتابًا بين يدي عالم أو سأل عالمًا سؤالًا، عليه أن يعوِّد لسانه الفصاحة، فإن هذا كان دأب السلف، كانوا يتحاشون اللحن، وكان منهم من إذا لحن استغفر كما جاء ذلك عن (أيوب السختياني) رحمه الله، وهذا يدلك على تعظيمهم لهذه اللغة.

وذكر شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله أن السلف كانوا يأخذون أولادهم لالتزام العربية، وكانوا يحثُّونهم على تجنُّب الخطأ في الكلام.

وذكر شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله في (اقتداء الصراط المستقيم) أن اعتياد اللغة العربية في اللسان أنه يؤثِّر في العقل والدين، أمَّا تأثيره في العقل فإنه يساعد على تنظيم الأفكار وترتيب الكلم، وأمَّا تأثيره في الدين فبيِّن لا يحتاج إلى شرح، لأن هذه اللغة هي لغة الكتاب العزيز ولغة محمد ﷺ.

على طالب العلم أن يحرص على السؤال فيما أشكل عليه من مسائل اللغة، وعليه أن يُعرِب الكلمات التي تستعصي عليه، فإذا استعصت عليه رجع إلى أهل

الفن، وعلى طالب العلم أيضًا إذا مرت به مباحث اللغة في كتب التفسير أو الفقه ألَّا يتجنبها ولا يتنكَّبها، بل عليه أن يقرأ فيها فإن فهمها كلها فحَسن، وإن فهم أكثرها أو منها فذلك خير، أمَّا أن يتركها كلها فلا.

قال (سيبويه) رحمه الله: كان (الخليل بن أحمد) يُوصينا إذا لم نفهم المسألة أن نحفظها، ويقول: (لا بُد أن نفهمها في يوم من الأيام، لأن الإنسان مع تقادم الأيام يتسع فهمه ويكون عنده إدراك وزيادة معرفة).

أُوصي طلاب العلم إذا تعلموا العربية أن يحتسبوا ذلك كما يحتسبون في تعلمهم في الفقه والتفسير، وعليهم أن يتذكَّروا أن المشتغلة بتعلُّم اللغة أنه يتعلم لغة الكتاب العزيز ولغة الحديث الشريف.

وقد قال (ابن حزم) رحمه الله تعالى: كلما ازداد طالب العلم وأوغل في تعلم العربية فهو زيادة في فضله وأجره، هكذا قال.

أسأل الله أن ينفعنا وإياكم بهذا العلم، وأن يُعيننا على فهمه والعمل به، فإنه سبحانه نعم المستعان وعليه التكلان، لا حول لنا سواه ولا نرجو إلا إياه، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

.

الأسئلة

هنا طائفة من الأسئلة بعضها أتيت عليه في أثناء الحديث.

السؤال: (المصباح المنير) ما قيمته لطالب العلم؟

الجواب: المصباح المنير للفيومي معجم وضعه لغريب الشرح الكبير للرافعي على الوجيز مختصر في فقه الشافعية، والوجيز للغزالي، وهذا المصباح المنير نافع وجيد، يعني وُضِع لكتاب ولكنه نافع.

وفيه فوائد من جهة ضبطه للأفعال للأوزان وكذلك المصادر، وهذا مما تميَّز به عن كتب اللغة فيما أعلم، مثلًا يقول (دَلَفَ) على وزن (نَزَلَ) يعني في المضارع إيش؟ يدلف، ومثلًا يقول سطح البيت يقول: الجمع على سطوح مثل فلس وفلوس. وهذا مما تميز به المصباح المنير، وإذا أردت أن تقتنيه فحَسن إن شاء الله تعالى.

السؤال: إن بعض طلاب العلم يتكلم عن علم النحو ويجعله غاية ويكون كالفقه في الإمعان فيه، والمعلوم أنه وسيلة لفهم الكلام ولإقامة اللسان، وقد قيل إنه كالملح في الطعام، يعني يأخذ ما يحتاجه منه.

الجواب: وقلت لكم إن هذه العلوم نعم وسيلة وأن الطالب لا ينكب عليها بحيث يترك ما عاداها، وإنما يتعلم النحو كما يتعلم غيره، وإذا أتقن فنًا في النحو متنًا كالآجرومية ثم بعده الألفية أو اكتفى بالأجرومية وقال: يكفيني، فله ذلك، ونحن لا نريد أن يجعله يعني ديدنه وصبوحه وغدوقه.

وأمَّا قوله إن النحو في الكلام كالملح ففسره بأنه يأخذ ما يحتاج منه، ليس المراد ذلك وإنما المراد أنه يعني لا بد منه، النحو في الكلام كالملح في الطعام، أي أنه لا بُد منه ولا يصلح الكلام بلا نحو كما لا يصلح الطعام بلا ملح.

السؤال: هذا يقول أنا في الصف الثاني الثانوي وأريد التوجه إلى إحدى الكليات، فما تنصحون به؟

الجواب: أقول تنظر في نفسك وما عندك من التوجُّه، فإن كان عندك ميول لعلوم الشريعة فلا أقدم على كلية الشريعة غيرها.

السؤال: ما أفضل الطبعات لكتاب سيبويه؟

الجواب: أساتذتنا يقولون إن أحسن الطبعات لكتاب سيبويه هي الطبعة الأوروبية التي هي في مجلدين، هي أصح من ما عداها، وهنالك طبعة وهي التي يرجع إليها الكثيرون وهي بتحقيق عبد السلام هارون، وهي لها فهارس، واجتهد فيها عبد السلام هارون رحمه الله.

لكن كان أساتذتنا يوصون بالرجوع إلى الطبعة الأوروبية؛ لأنها أصح في النصوص، وممكن أن تضيف إليها طبعة عبد السلام هارون، وطبعة عبد السلام هارون خدمها الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله، أعني: الطبعة الأوربية خدمها بفهارس في مجلد ضخم.

السؤال: مَن أتقن الآجرومية فهل تُوصيه بدراسة ملحة الإعراب أو القطر؟

الجواب: أنا أقول من أتقن الآجرومية وهضمها فعليه بالألفية إذا أراد التوسع، وإلَّا فلا يحتاج إلى القطر ولا غيره، فإمَّا أن يذهب إلى ألفية ابن مالك أو يكتفي بالآجرومية، فإن قال: لا، ما أستطيع الألفية، نقول: القطر إذن يكفيك.

السؤال: ما أهمية الأدب للطالب؟ وهل هناك فائدة لطالب العلم الشرعي؟

الجواب: علوم، الأدب، كتب الأدب كان الناس من أهل العلم يستجمون بها، يستجمون يعني بها، فيقرأون من كتب الأدب ويُحمِضُون كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، فإنه يقول في نهاية مجلسه: أَحْمِضُوا.

يعني: أعطونا من الأدب، من الشعر، حِكَم العرب، طرائف العرب، وللأسف أن غالب كتب الأدب فيها ما لا يُرضِي، فيها إسفاف.

ومن أحسن كتب الأدب لما أعلم كتاب (بهجة المجالس) لـ(ابن عبد البر) رحمه الله، وهناك كتب أدبية ولكن لا يجعلها طالب العلم يعني ديدنًا له في القراءة فتأخذ عليه أوقاته.

وأنا أدعو مَن كان عنده قدرة أدبية وعلمية أن يقتصد كتب الأدب وأن يلخِّصها من السُّخف الذي فيها ومن السباب ومن المجون ومن سلب سلف الأمة ككتاب (البيان والتبيين) للجاحظ مثلًا، فإذا تيسر منكم مَن يقوم بتلخيصه واختصاره يقدِّم النافع منه ويترك ما عداه فهذا حسن.

السؤال: ما رأيك فيمَن لا حاجة للقراءة أو لحفظ الأشعار أو المعاجم، بل يكفيك الرجوع إليها؟

الجواب: نعم المعاجم كان الناس يعني يكثروا الرجوع إليه، فإذا كنت تريد أن تحفظ شواهد على كلمات بتأصيلها أو على أساليب تريد تقريرها فذلك جيد إن شاء الله تعالى.

السؤال: ما اسم كتاب البلاغة الذي ذكرته آنفًا؟

الجواب: دروس البلاغة، لحفني ناصف وزملائه.

السؤال: هل يحتاج طالب العلم إلى علم العروض؟

الجواب: يعني إن كان عنده وقت يتسع وقد مهر في النحو والصرف، فلا بأس أن يأخذ من علم العروض ما يعرف به الصحيح من السقيم من أشعار العرب، وهو علم سهل صعب.

هذا ما تيسَّر قوله، وأسأل الله أن يوفِّقنا وإياكم إلى ما يحب ويرضى، وأن يغفر لنا ما أخطأنا فيه، وصلَّى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وعلى آله وصَحبه أجمعين.